حنين الرسول والطير العرب

للدكتور علي عبد الواحد وافي
أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب

زود الله الشعب العربي المجيد بصفتين كريمتين لعلهما لم يتوافرا في أي شعب آخر بمقدار توافرهما لديه : إحداهما شدة التعلق بالوطن الأصلي ؛ والأخرى شدة الميل إلى التنقل والهجرة ، وشاءت قدرة البارىء الحكيم — وقد كرّم هذا الشعب ، وفضله على كثير من خلقه تفضيلا ، وخصه في سلم الرقي الاجتماعي واللغوي بأمور تعد من قبيل المعجزات — أن يخصه بمعجزة أخرى في ميوله النفسية ، فزوده بهذين الميلين المتضادين المتنافرين (التعلق بالوطن والميل إلى الهجرة) ، ولكنه ألف بينهما في نفوس أفراده ، فأصبحا بنعمته منسجمين تمام الانسجام ، يشد كلاهما أزر الآخر ويكمل نقصه ويخفف من غلوائه .

فما كان العربي لتنسيه هجرته حقوق وطنه الأول ، ولا لتنال من مكانته عنده ، أو تنقص من حبه له أو حنينه إليه . وما كان تعلقه بوطنه الأول ليحول بينه وبين الهجرة منه إذا كان في هجرته رفع لشأن بلاده ، أو توسيع لرقعة ملكها ، أو مدّ لنفوذها وسلطانها ، أو تخفيف من أعبائها ، أو دفاع عن مذهب يقتنع به ، أو فرار من ضيم أصابه ، أو ابتغاء للرزق ، أو سعي لبغية المكارم والمجد . وفي هذا يقول الشنفرى شاعرهم الجاهلي .

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متحول
لعمرك ما بالأرض ضيق على امرىء
سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل

ويقول أدباء العرب إن أقذع ذم وُجّه إلى عربي هو قول الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر ويناضل عن بغيض بن لأي :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

أما حبهم لأوطانهم الأولى ، وشدة حنينهم إليها ، فلا أدل على ذلك من حنين الرسول عليه الصلاة والسلام إلى مكة بعد هجرته منها ، مع أن أهلها قد أخرجوه منها وساموه وشيعته سوء العذاب ، ومع أنه قد كان في هجرته منها نشر للاسلام وتوطيد لدعائمه . فقد روى أن أُسَيْلا الغفاري قدم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قبل أن يضرب الحجاب ؛ فقالت له عائشة : « كيف تركت مكة ؟ » ؛ فقال : « اخضرت جنباتها ، وابيضت بطحاؤها ، وأحجن ثُمامها ، وأغدق إذخرها ، وأنشر سَلَمها[1] » ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أثار هذا حنينه إلى وطنه الأصلي : « حسبك يا أسيل لا تحزنّي » ، وفي رواية : « إيهاً يا أُسيل ! تدع القلوب تَقر » وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة : « ما أطيبك من بلد وأحبّك إليّ ! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك[2] » . وعن الضحاك رضي الله عنه أنه قال : « لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة فبلغ الجُحفة اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله تعالى عليه : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد » (قال أي إلى مكة)[3] — ولا أدل كذلك على حب العرب لأوطانهم الأولى وشدة حنينهم إليها من عنايتهم في وثنيتهم بالحج إلى مكة ، حتى لقد ارتقت هذه الشعيرة لديهم إلى مصاف الفرائض الدينية الهامة . وما الحج في نشأته الأولى إلا مظهر من مظاهر حنين العرب إلى وطنهم الأول ومنشأ أجدادهم الأولين وهو الحجاز . فمن المحقق أن الحجاز كان المهد الأصلي للشعب العربي ، ومنه انتشر هذا الشعب الكريم في جميع أنحاء الجزيرة العربية وغيرها من بلاد العالم .

وأما شدة ميلهم إلى الهجرة كلما دعاهم إلى ذلك داع جدي

---

(١) أحجن أي بدا ورقه ؛ والثمام على وزن غراب نبت يسد به خصاص البيوت الواحدة ثمامة ؛ وأغدق أي أزهر ؛ والاذخر حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب ؛ وأنشر أي خرج ورقه واكتسى والسلم والطلح واحد . والحديث مروي عن الخطابي في غريب الحديث عن الزهري

(٢) أخرجه الترمذي

(٣) رواه الامام أحمد ، قال أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عدي بن الحمراء أخبره أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم . الخ

فلا أدل عليه من هجراتهم التوالية فى فجر تاريخهم وفى عصور جاهليتهم وإسلامهم .

فمن الحجاز واليمن اتجهت فى فجر التاريخ موجات الهجرة العربية إلى مختلف أنحاء الجزيرة العربية وإلى غيرها من بلاد العالم. — فمن هذا القسم نزح الساميون إلى العراق وغزوا بلاد السومريين وغلبوهم على أمرهم وأنشئوا مملكة بابل — ومن هذا القسم كذلك نزح الساميون إلى الشمال فتكونت من سلالاتهم الشعوب التى عرفت باسم الشعوب الكنعانية وهى التى تفرع منها الفينيقيون والعبريون . — ومن هذا القسم كذلك هاجر بعض قبائل الإسماعيليين (أى أولاد إسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام) إلى خليج العقبة حيث تكون من سلالاتهم الشعب النبطى وهو مخترع الخط النبطى المتصل الحروف الذى انشعب منه خطنا العربى الحالى . — ومن هذا القسم كذلك هاجر عرب الرعاة أو الهكسوس إلى مصر حيث أنشئوا ملكا كبيراً ونشروا حضارتهم العربية على ضفاف النيل . — ومن هذا القسم كذلك هاجر فى أقدم العصور قبائل عربية كثيرة إلى الهند والحبشة والسودان وشمال أفريقيا وشرقها . — ومن هذا القسم كذلك هاجر فى أوائل التاريخ الميلادى بعض القبائل المدية (أولاد معد) التى كانت تقطن الحجاز إلى الشام وبعض القبائل القحطانية التى كان موطنها اليمن إلى الشمال والشرق . فنزلت منها غسان بالشام والأوس والخزرج بالمدينة (وهاتان القبيلتان الأخيرتان قحطانيتان هاجرتا من اليمن إلى المدينة وإليهما هاجر الرسول عليه السلام ، وفيهما تكوّن الأنصار رحمة الله عليهم ورضوانه).

وكذلك كان شأن العرب فى عصورهم التاريخية السابقة للاسلام مباشرة ، والتى اشتهرت باسم العهد الجاهلى . وقد جمعت لنا كتب الأدب طائفة كبيرة من أخبار هجراتهم وتنقلاتهم إلى مختلف أرجاء الجزيرة العربية وإلى غيرها من بلاد العالم ؛ حتى أننا لانكاد نجد قبيلة استقرت فى موطنها الأصلى . وقد ساعد على تتابع هجراتهم وكثرة تنقلاتهم عدم خصوبة أرضهم ، واشتغال معظمهم بمهنة الرعى ، وسعيهم وراء الكلأ والماء . وساعد على ذلك أيضاً كثرة حروبهم الأهلية التى لم يكد يخمد لها سعير فى هذه العصور ؛ فكانت القبيلة التى تكون فى موطنها عرضة للعدوان أو تغلب على أمرها تنزح فى الغالب عن ديارها ؛ كما حدث لمعظم بطون تغلب بعد أن هزمتها بكر فى حرب البسوس .

أما هجراتهم بعد الاسلام فحدث عنها ولا حرج ؛ فقد انتشروا فى جميع بلاد العالم المتحضر فى ذلك العصر من الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً ، ومن أقاصى السودان جنوباً إلى آسيا الصغرى والبلقان وفرنسا وإسبانيا شمالا ، فنشروا فى هذه البلاد دينهم وأخلاقهم وتقاليدهم ودمهم العربى ، وأسسوا بنيان ملكهم فيها على تقوى من الله ورضوان . وفى هذا يقول شاعرهم الرحالة أبو دلف (وهو خزرجى من سلالة الأنصار الكرام) .

فنحن الناس كل الناس فى البر وفى البحر
أخذنا جزية الخلق من الصين إلى مصر
إلى طنجة بل فى كل أرض خيلنا تسرى
إذا ضاق بنا قطر نزلنا عنه إلى قطر
لنا الدنيا بما فيها من الاسلام والكفر

* * *

فلم يكن إذن حادث هجرة الرسول عليه السلام وجماعة من أصحابه من مكة إلى المدينة غريباً على الطبع العربى ؛ بل كان هذا الطبع يحتمه تحتيما فى مثل الظروف التى تمت فيها هذه الهجرة ، كما حتم من قبل ذلك فى ظروف مشبهة لهذه الظروف هجرة نفر إلى بلاد الحبشة وإلى المدينة نفسها من السابقين الأولين إلى الإسلام . فقد أشرنا فيما سبق إلى أن العربى كان يندفع بطبعه إلى الهجرة من بلاده إذا دعاه إلى ذلك داع من مصلحة عامة أو خاصة أو أصابه ضيم بين عشيرته . وهذه الأسباب جميعاً كانت متوافرة فى هجرة الرسول عليه السلام .

ومع أن أهل المدينة كانوا يتألفون حينئذ من قبائل قحطانية تختلف فى أصولها الشعبية عن القبائل العدنانية التى ينتمى اليها الرسول عليه السلام ، فقد آثر الهجرة إليهم دون غيرهم لأسباب كثيرة أهمها فى نظرى ثلاثة أسباب :

(أحدها) أن أخوال أبيه عليه السلام كانوا قحطانيين من أهل المدينة . فكان طبيعياً ، حسب مألوف العرب ، وقد خذله عصبته وساموه سوء العذاب ووقفوا فى سبيل دعوته ، أن يلجأ

إلى بعض فروع خئولته يلتمس منهم العون والحماية . فالخئولة أقرب الناس إلى العربى بعد عمومته . بل يظهر أن العرب فى مرحلة ما من أقدم مراحل تاريخهم كانت لحمة نسبهم بخئولتهم أوثق من لحمة نسبهم بعمومتهم .

(وثانيها) أنه قد آمن به قبل هجرته عدد كبير من أهل المدينة وبايعوه على الدفاع عن دينه . فكان طبيعياً أن يؤثرهم على غيرهم بهجرته ويتخذ منهم أنصاراً لنشر رسالته . «والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» .

(وثالثها) أن أهل المدينة وضواحيها كانوا أكثر استعداداً لقبول فكرة التوحيد التى جاء بها الدين الإسلامى من بقية أهل الحجاز . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى كثرة احتكاكهم بالموحدين من اليهود والنصارى الذين كانت تتألف منهم حينئذ جاليات كبيرة عربية وغير عربية فى المدينة نفسها وفيما يتاخمها من مواطن .

صحيح أنه قد ظهرت بمكة قبيل الإسلام مدرسة الحنيفيين الموحدين الذين انحرفوا عن الشرك والوثنية (ومن أجل ذلك سموا بالحنيفيين أى المنحرفين) وعبدوا الله وحده على ملة إبراهيم وأقاموا الصلاة وصاموا رمضان وكان من هؤلاء محمد بن عبدالله نفسه قبل أن يبعث رسولا ، كما كان منهم نفر من قريش، ولكن أعضاء هذه المدرسة كانوا يتألفون من بعض التائهين والمتفلسفين من سكان مكة ، أما دهماء الشعب نفسه فكانت شديدة التعلق بدينها الوثنى ، سادرة فى ضلالها القديم ، تقتفى آثار آبائها فيما كانوا يعبدون . وهذا هو عكس ما كان عليه الأمر فى المدينة. فمع أنه لم ينشأ فى الأوس والخزرج مدرسة متفلسفة كمدرسة الحنيفيين بمكة ، فإن السواد الأعظم من الشعب نفسه كان مهيئاً تهيئة كبيرة لعقيدة التوحيد .

على عبد الواحد وافى

مكتبة الجامعة بشارع محمد على بمصر

تقدم إلى طلاب الثقافة وعشاق الأدب فى مصر والعالم العربى بأخلص تهانيها بمناسبة العام الهجرى الجديد .
كما تقدم إليهم — جرياً على عادتها — مجموعة مختارة من الكتب القيمة لأشهر المؤلفين فى مختلف الفنون .

ص	
٤٠	تهذيب الكامل . جزآن للأستاذ السباعى بيومى
٥	التربية والتدريس واتصالها بعلم النفس للاستاذ السباعى بيومى
٢٠	الأصول القضائية فى المرافعات الشرعية الشيخ على قراعه
٦٠	الانسان ٤ أجزاء — موسوعة علم وأدب لمى فكرى بك
٣٠	رحلات عبد الوهاب عزام بك
١٢	مائدة أفلاطون . كلام فى الحب . لطفى جمعه بك
٤	اليابان لعصام محمد سليمان
٢٠	أسلوب الحكيم فى الانشاء للهاشمى بك
٢٠	أغاريد روض ديوان فؤاد بليبل
٢٠	وحى الوتر بحث فيما يعد للوتر لمحمود قراعه المحامى
٨	نعيم الجنة لمحمود قراعه
٨	مناجاة الخيال ومعانى الحب لمحمود قراعه
٢٠	محاضرات إسلامية لعبد الرحمن الحديثى بك
٢٠	محاضرات فى النصرانية للأستاذ محمد أبى زهره
٣٠٠	الموسوعة الجنائية ٥ أجزاء لجندى عبد الملك بك
٥٠	الحيل المشروع منها والممنوع لعبد السلام ذهنى بك
١٠	مواكب الحياة قصص مختارة لمشاهير الكتاب
١٨٠	نفح الطيب فى تاريخ الأندلس للمقرى ٩ أجزاء

ص	
١٢٠	وفيات الأعيان وأنباء الزمان لابن خلكان ٦ أجزاء
٣٠	الكنوز الملكية فى الزراعة المصرية جزآن
١٢	الكنوز الملكية فى الجداول الحسابية
٣٠	طبيعة المرأة للأستاذ محمود يوسف القدمة الشيخ أبى العيون
٤٠	الأمراض التناسلية للدكتور عبد العزيز حوده بك مجلداً
٢٠	الميراث فى الشريعة الاسلامية للاستاذ على حسب الله
٥	مصرع أرثر للأستاذ محمد موسى المحامى
٨٠	الحيوان للجاحظ ٧ أجزاء
١٠	البخلاء للجاحظ
٦٠	مصر فى القرن التاسع عشر لمحمد مسعود بك
١٠	أحاديث الزواج بقلم رسول الزواج
٢٠	قانون العقوبات بتعليق للأستاذ يالوت سلام المحامى
١٠	الحرب الحديثة وما تلقيه على مصر والشرق من دروس
٢٠	الوراثة عرض وتحليل للدكتور فؤاد حسنين
٨٠	الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى
٧٠	الوساطة بين المتنبى وخصومه شرح البجاوى وأبو الفضل
٦٠	الغزالى ٣ أجزاء للدكتور فريد رفاعى بك
٣٠	الفقه على المذاهب الأربعة فى العبادات